Comprehensive Journal of Science
Volume (10), Issue (39), (March, 2026)
ISSN: 3014-6266

مجلة العلوم الشاملة
المجلد (10) العدد 39 مارس 2026
ردمد: 3014-6266

أثر التصوف على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في غرب إفريقيا في الفترة من القرن 3-10هج/ 9-16م

جميلة محمد صالح أبو القاسم
قسم التاريخ -كلية التربية بالزاوية-جامعة الزاوية

The impact of Sufism on the cultural, social, and political life in West Africa during the period from the 3rd to the 10th century AH/9th to 16th century AD,

By Dr. Jamila. Muhammed Saheh Abulgasem
Associate Professor, Department of History, Faculty of Education, Zawiya, University of Zawiya
jabulgasem@zu.edu.ly

تاريخ الاستلام:2026/01/06 -تاريخ المراجعة: 2026/01/31- تاريخ القبول: 2026/02/14- تاريخ للنشر :2026/03/11

الملخص

يتناول هذا البحث أثر التصوف على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في غرب إفريقيا خلال الفترة من القرن 3-10هـ/9-16م، مع التركيز على تأثيره التصوف وليس على الطرق الصوفية نفسها.

وذلك في ثلاث محاور، يعرض المحور الأول للخلفية التاريخية للتصوف ومقوم التصوف والطرق الصوفية، وقنوات تسربه لغرب إفريقيا، ويجال المحور الثاني تأثيره في تطور الحياة الثقافية والعملية التعليمية بكاملها. بينما يطرح المحور الثالث أثر التصوف على تغيير الكثير من المعتقدات العادات والتقاليد الاجتماعية الوثنية، بينما يوضح المبحث الرابع تأثير التصوف على السلطات السياسية. ويهدف البحث إلى تحليل دور التصوف في التطور الثقافي والعلمي وتعزيز القيم الدينية والأخلاقية ودعم الاستقرار السياسي في مجتمعات غرب إفريقيا. وتدور إشكالية البحث حول توضيح كيف ساهم التصوف في تحويل الزوايا الصوفية إلى مراكز تكامل ثقافي واجتماعي تجمع بين العبادة والتعليم والتفاعل مع السلطات السياسية. وكشفت نتائج البحث على إن التصوف لم يكن مجرد ممارسة دينية في غرب إفريقيا، بل قوة تأثير كبيرة أسهمت في نشر العلم والثقافة، وعززت التماسك الاجتماعي وضبطت السياسة المحلية، ورسخت الهوية الثقافية والدينية لمجتمعات البحث.

Abstract

This research examines the impact of Sufism on the cultural, social, and political life in West Africa during the period from the 3rd to the 10th century AH/9th to 16th century AD, focusing on the influence of Sufism itself rather than the Sufi orders themselves. This is explored through three main themes. The first theme presents the historical background of Sufism, its components, Sufi orders, and the channels through which it spread to West Africa. The second theme discusses its impact on the development of cultural life and the entire educational process. The third theme explores the impact of Sufism on changing many of the pagan social beliefs, customs, and traditions. The fourth section clarifies the impact of Sufism on the political authorities. The

research aims to analyze the role of Sufism in cultural and scientific development, the promotion of religious and ethical values, and the support of political stability in West African societies. The research problem revolves around clarifying how Sufism contributed to transforming Sufi lodges (Zawiyas) into centers of cultural and social integration, combining worship, education, and interaction with political authorities. The research results revealed that Sufism was not merely a religious practice in West Africa, but rather a significant force that contributed to the dissemination of knowledge and culture, strengthened social cohesion, regulated local politics, and consolidated the cultural and religious identity of the studied societies

الكلمات الدالة: التصوف، العلماء، التجار، شيوخ الدين، المتصوفة، تأثير، الزوايا، الكتاتيب، الحياة الثقافية، الاجتماعية، السياسية.

المقدمة

بدأ التصوف في غرب إفريقيا كظاهرة دينية واجتماعية بارزة، ثم امتد تأثيرها ليشمل جميع نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية. دخل هذا التصوف إلى مجتمعات غرب إفريقيا مع التجار والعلماء وشيوخ الدين المسلمين، الذين نقلوا المعرفة الدينية والممارسات الروحية، والقيم الأخلاقية والاجتماعية، وتعزيز الانتماء الديني في هذه المجتمعات. وساهموا في بناء شبكات دعم اجتماعي بين القرى والمدن، وأنشأوا المدارس القرآنية والمكتبات، التي شكلت مراكز لنشر العلم والثقافة بين المريدين والمجتمعات المحلية. ومن خلال هذه الأدوار، ساهم التصوف والمتصوفون في ازدهار مجتمعات غرب إفريقيا وترسيخ الإسلام فيها.

إشكالية البحث

على الرغم من الأثر الهام الذي تركه التصوف في مختلف مناحي الحياة في مجتمعات غرب إفريقيا، إلا أن الدراسات التاريخية التقليدية غالباً ما تركز على جانبه العقائدي وأنواع الطرق الصوفية، متجاهلة أثره في تحويل الزوايا الصوفية إلى مراكز تكامل ثقافي واجتماعي تجمع بين العبادة والتعليم والتفاعل مع السلطات السياسية. وهنا تبرز إشكالية البحث في السؤال الرئيسي التالي: كيف أثر التصوف في التغيير الثقافي والاجتماعي ودعم الاستقرار السياسي في مجتمعات غرب إفريقيا؟ وينبثق عنه الأسئلة الفرعية التالية:

1-ما هو مفهوم التصوف والطرق الصوفية؟

2-كيف انتشر التصوف في مجتمعات غرب إفريقيا؟

3-ما هي مظاهر تأثير التصوف على الحياة الثقافية والعلمية والاجتماعية؟

4-إلى أي مدى أثر التصوف في الحياة السياسية بغرب إفريقيا؟

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الفرعية من خلال:

1-بيان أثر التصوف على الحياة العلمية والثقافية.

2-تحليل دور الزوايا الصوفية في إعادة تشكيل البنية الاجتماعية، والقضاء على بعض العادات الوثنية مع الحفاظ على الهوية الثقافية المحلية.

3-استكشاف تفاعل التصوف مع السلطات السياسية ودعمه لشرعية السلاطين.

4-المساهمة في إثراء الدراسات حول غرب إفريقيا بموضوعات جديدة لم يتناولها الباحثون سابقاً.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في سد فجوة علمية تتعلق بعدم وجود دراسة شاملة لأثر التصوف على الحياة الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية في غرب إفريقيا خلال الفترة من القرن 3-10هج/ 9-16م. كما إن أغلب الدراسات ركزت على الجوانب العقائدية للتصوف، متجاهلة التغييرات الثقافية والعلمية والاجتماعية التي أحدثها في مجتمعات غرب إفريقيا. مما يتيح فهماً أعمق لدور التصوف في ازدهار الحياة الثقافية والاجتماعية ودعم الاستقرار السياسي.

منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال جمع المعلومات من المصادر التاريخية والدراسات السابقة، وتحليلها ضمن الإطار الزمني المحدد (3-10هـ/9-16م)، مع التركيز على التأثير الثقافي الاجتماعي والسياسي للتصوف على مجتمعات البحث.

المبحث الأول: الخلفية التاريخية للتصوف في غرب إفريقيا

1. مفهوم التصوف والطرق الصوفية

التصوف مسار روحي داخل الإسلام يهدف إلى تعميق العلاقة بين الإنسان وربه من خلال العبادة، والتأمل الذاتي، والالتزام بالقيم الأخلاقية المستمدة من القرآن والسنة. وهو تجربة شخصية تختلف من صوفي إلى آخر، ما يجعل تحديد تعريف واحد له أمراً معقداً (نصر، 1998، ص 45- 46). ويدور التصوف بشكل عام حول أربعة أبعاد أساسية تشكل جوهر التجربة الروحية وهي: تطوير الذات، الالتزام بالأخلاق، التحلي بالزهد، والسعي وراء المعرفة الدينية. وحسب ابن خلدون (1961، ص 429-430)، فإن الصوفي يسعى للانقطاع عن زخارف الدنيا والانشغال بالعبادة والاقتراب من الله، مع مراعاة الاعتدال في الحياة وتجنب الانغماس في مطامع المال أو الجاه، وهو ما يمنح الفرد قدرة على التوازن بين الروحانية والسلوك الاجتماعي.

2. تسرب التصوف إلى غرب إفريقيا

شهدت منطقة غرب إفريقيا منذ نهاية الثالث الهجري، والتاسع الميلادي تفاعلاً حضاريًا وثقافيًا مع بلاد المغرب العربي عبر التجارة والهجرة، مما ساهم في انتقال عدد من الظواهر الدينية والفكرية، ومن بينها التصوف، الذي وجد في البيئة الغرب إفريقية أرضية خصبة للانتشار والتجذر. ولم يكن دخول التصوف إلى غرب إفريقيا حدثًا مفاجئاً، بل جاء نتيجة مسار تاريخي طويل ارتبط بالعديد من القنوات. يأتي في مقدمتها حركة تنقل التجار والعلماء وشيوخ الدين أو الصوفيون من بلاد المغرب العربي والصحراء الكبرى إلى غرب إفريقيا، والذين جمعوا بين الدعوة إلى الإسلام ونشر الفكر الصوفي وطرقه (أبيكن، 2013، ص 22، والألوري، 1345هج/2014م، ص59). ثم طرق التجارة العابرة للصحراء والتي كانت من أبرز القنوات التي أسهمت في نقل الإسلام وممارسات التصوف إلى مجتمعات غرب إفريقيا، إذ ربطت هذه الطرق بين شمال إفريقيا والإمبراطوريات التي قامت في غربها (Trimingham, 1968a, pp. 45-46). فالتجار المسلمون، إلى جانب نقلهم للسلع التجارية، نقلوا الإسلام والقيم الدينية والممارسات الروحية للتصوف، حيث كان معروفًا عن بعض التجار وشيوخ الدين الزهد والورع، وتسامحهم مع غيرهم وتألف قلوبهم وعطفهم على المسكين والفقير، ولزوم الأذكار والإعراض عن الدنيا وملذاتها وزخرفها، مما أثار اهتمام مجتمعات غرب إفريقيا، فالتفوا حولهم وتبنوا قيمهم وممارساتهم كما جادل الألوري (1345هج/2014م ص61) و(Vikør (2000, pp.441. وكان لاستقرار هؤلاء التجار وشيوخ الدين في حواضر غرب إفريقيا، وإنشاء المدن والمجتمعات الإسلامية وبناء المساجد وتأسيس مجالس التعليم الديني أثراً بالغاً في نشر الفكر الصوفي وممارساته بين مجتمعات البحث (Levtzion & Hopkins, 2000, pp. 21-25).

وكان بعض العلماء والفقهاء الذين قدموا من شمال إفريقيا والأندلس لغرب إفريقيا لنقل علوم القرآن والفقه واللغة العربية، يحملون التوجهات الروحانية الصوفية، ومن أبرز هؤلاء، أبو الحسن علي الشاطبي من المغرب، وأحمد بن إبراهيم الفاسي من مدينة فاس، وزكريا المالكي من تونس، وتجار وعلماء الإباضية من جبل نفوسة في ليبيا، والذين أسهموا في نشر قيم الزهد، الورع، وتهذيب النفس بين طلاب غرب إفريقيا (Hunwick, 1999a, pp. 122–130). ولعب التعليم الديني في الكتاتيب دورًا كبيرًا في تعزيز هذه القيم بين الطلاب، الذين نقلوا بدورهم هذه المفاهيم إلى مجتمعاتهم المحلية. كما ساهم تأسيس حلقات العلم والمدارس الدينية والمساجد في تمبكتو وجني وقاو في القرن الخامس الهجري، والحادي عشر الميلادي في زيادة التأثير الروحي بين السكان المحليين (Trimingham, 1968a, pp. 47– Levtzion, 1973, pp. 33–36 & 48).

وكان للرحلات العلمية التي كان يقوم بها أبناء غرب إفريقيا إلى مراكز العلم في المغرب العربي ومصر والمدينة المنورة ومكة، أثراً ملموساً في نقل ونشر مفاهيم الصوفية. حيث كان طلاب العلم يسافرون طلباً للعلم ويلتقون بعلماء ومتصوفة يتبنون مفاهيم مرتبطة بتزكية النفس والعبادة، وعند عودتهم كانوا ينقلون هذه المفاهيم الروحية إلى مجتمعاتهم، مما ساهم في إدخال أفكار جديدة في الحياة الدينية في غرب إفريقيا (Levtzion & Hopkins, 2000, pp. 27–31).

كما وفر موسم الحج المناخ الملائم للتواصل والتعارف وتبادل الأفكار الدينية والروحية بين علماء غرب إفريقيا والعلماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وسرع من وتيرة التأثير الصوفي على علماء غرب إفريقيا (Hunwick, 1999a, pp. 22–25).

ولم تقتصر وسائل التأثير على التنقل الشخصي للعلماء والطلاب، بل ساعد انتقال الكتب الدينية والرسائل العلمية والمخطوطات والأوراد الصوفية من المغرب العربي إلى غرب إفريقيا على نشر الأفكار والمفاهيم الروحية المرتبطة بالتصوف والزهد والتربية الروحية شيئا فشيئا بين علماء وطلاب منطقة البحث (Trimingham, 1962b, pp. 50–52). ولعبت المراكز العلمية الكبرى في القيروان بتونس، وفاس ومراكش في المغرب، والجامع الأزهر في مصر دوراً مميز تسرب أفكار التصوف ومفاهيمه إلى مجتمعات غرب إفريقيا، حيث تلقى طلاب العلم من مجتمعات البحث تعليمهم في العلوم الدينية المختلفة مع المفاهيم الروحية، وعند عودتهم ساهموا في نقل أفكار الصوفية وممارساتهم إلى أهلهم ومجتمعاتهم، مما ساعد على ظهور الفكر الديني المتضمن للبعد الصوفي بين السكان المحليين (Hunwick, Levtzion, 1973, pp. 36–39 & 1999a, pp. 26–30). وتعتبر القادرية التي تنسب لعبد القادر الجيلاتي البغدادي الأصل (ت561هج/1167م)، من أقدم الطرق الصوفية التي راج انتشارها بين مجتمعات غرب إفريقيا، وكان دخولها على يد العالم الصوفي عبد الكريم المغيلي التلمساني، ثم احمد البكاي الكنتي، جد قبلة كنته (الألوري، 1970م، ص 104، والهادي، 2014، ص 127 ومحمد، 2018، ص 3)

المبحث الثاني

أثر التصوف في تطور الحياة الثقافية والعلمية

شكل التصوف في غرب إفريقيا حجر الزاوية في أنشاء المؤسسات التعليمية والتثقيفية المحلية المتمثلة في الزوايا والكتاتيب والخلاوي والتي بلغ عددها في القرن 10هج/16م، نحو المئتان، حسبما سجل كعت (2014م، ص 154)، والتي تحولت إلى فضاءات تعليمية وثقافية يتعلم فيها الأطفال والشباب القراءة والكتابة والقرآن والسلوك الاجتماعي والأخلاقي في إطار تثقيفي يرتبط فيه النجاح بالالتزام الديني والانضباط الشخصي (صحراوي، 2019، ص 125–126). مما أسهم في ترسيخ مجموعة من القيم الثقافية والأخلاقية التي ربطت بين العلم والسلوك، إذ لم يعد التعلم مجرد تحصيل معرفي، بل أصبح وسيلة

للإصلاح وبناء الشخصية الأخلاقية، وهو ما انعكس في احترام الشيخ والالتزام بالواجبات الدراسية والاهتمام بالأخلاق والانضباط داخل هذه المؤسسات التعليمية (Kane,2015, p.132,).

وتحول التعليم في هذا السياق من مجهود فردي محدود إلى نشاط اجتماعي تمارسه الجماعة داخل الزوايا، حيث يجتمع الطلاب حول الشيخ في بيئة تعليمية قائمة على التعلم التدريجي والتوجيه الديني الروحي، الأمر الذي عزز مكانة العلم في مجتمعات غرب إفريقيا وربطه بالقيم الدينية والسلوكية (Robinson,2004, p. 45). وانطلاقا من هذا الإطار التعليمي تطورت العلاقة بين الشيخ والطالب لتقوم على الاحترام المتبادل والتوجيه الروحي، فأصبح الطالب المتواضع الملتزم بالدين مثالا يحتذى به في المجتمع، وساهم انتشار الزوايا الوقفية في توسيع نطاق التعليم ليشمل القرى والمناطق البعيدة عن المراكز الحضرية، وهو ما أدى إلى ربط الأرياف بالمدن علميا وثقافيا، وأدى إلى نشوء ثقافة تعليمية ريفية أصبح فيها التعليم جزءاً من الممارسة الدينية اليومية وليس مجرد وسيلة للتحصيل المادي كما جادل Kane (2015, p. 132) ولم يقتصر تأثير التصوف على المجال التعليمي والتثقيفي فحسب، بل امتد إلى الحياة الثقافية والأدبية، حيث استعمل الشعر الصوفي والمدائح النبوية والأذكار كوسائل تعليمية تساعد على توطيد العقيدة والأخلاق في نفوس الطلاب. وكانت هذه النصوص تحفظ وتدرس في الزوايا إلى جانب القرآن الكريم، الأمر الذي جعل الشعر وسيلة تعليمية فعالة ساهمت في غرس القيم الأخلاقية وفضائل العمل (Levtzion, & Pouwels, 2000, pp.19)

كما استعملت حلقات الذكر والممارسات الصوتية الجماعية كأدوات تربوية واجتماعية جذابة، إذ كانت تجمع الصغار والكبار في مجالس تعليمية تتيح تعلم الأدعية والأوراد وترسيخ القيم الأخلاقية في إطار جماعي يجمع بين التعليم والممارسة الدينية اليومية (Robinson,2004, p.48). من خلال هذه الممارسات التعليمية والثقافية أسهم التصوف في تشكيل هوية ثقافية مميزة في مجتمعات غرب إفريقيا تقوم على التوازن بين الاهتمام بالعلم والالتزام بالدين. وأصبح الطالب في نظر المجتمع ليس مجرد متعلم في الكتاتيب، بل طالب طريق يجمع بين المعرفة والسلوك، وهو ما يعكس النظرة الصوفية التي تربط بين العلم والعمل وبين المعرفة والأخلاق، حيث يقيم الطالب وفقا لمستوى علمه وسلوكه معا (Kane,2015, p.133).

وهكذا، لم يعد التصوف مجرد ممارسة روحانية فردية، بل تحول إلى ظاهرة ثقافية وتعليمية أثرت في أنواع السلوك وطرق التعليم والتعلم، وامتد تأثيره إلى الأدب والفنون والعلاقات الاجتماعية داخل مجتمعات البحث (Kane,2015, p. 133 & Smith,2018, p.20). ويتجلى هذا التأثير بصورة واضحة في الزوايا والحلقات التعليمية التي جمعت بين تدريس القرآن والعلوم الشرعية والتربية الروحية والأخلاقية، كما اعتمدت على الأدب والذكر بوصفهما وسائل تعليمية كان لها دوراً كبيراً في ترسيخ المعرفة الدينية والقيم الصوفية في نفس الوقت (Robinson,2004, p.49). هذا التكامل بين التعليم والتربية الروحية أدى إلى جعل التصوف قوة ثقافية كبرى أسهمت في تنظيم الحياة العلمية في المدن والأرياف، وربطت بين الالتزام الديني والاجتهاد في التحصيل العلمي، الأمر الذي جعل حضور حلقات العلم وقراءة القرآن تعد من العلامات على المكانة الأخلاقية والمستوى الثقافي داخل المجتمع (Robinson, 2004, p.50 & Kane,2015, pp.90-92).

وفي المجال الأدبي أثر التصوف في إنتاج نصوص صوفية جمعت بين الفقه والتصوف، وكان من أبرز أعلامها في غرب إفريقيا العالم أحمد بابا التمبكتي (ت1036هـ/1627م)، الذي تأثر بالمؤلفات الصوفية القادمة من المشرق والمغرب مثل كتب الغزالي وابن عربي التي وصلت إلى المنطقة عبر القوافل التجارية. وقد شمل هذا الإنتاج الأدبي قصائد في مدح الشيوخ والأوراد الصوفية، كما تكشف مخطوطات مكتبات تمبكتو عن تبادل الرسائل العلمية بين رجال التصوف في المغرب العربي وغرب إفريقيا (Kane,2015, pp.175-178). وهو ما ساهم في تكوين وعي ثقافي يربط بين الروحانية والتاريخ المحلي لمجتمعات غرب إفريقيا. وفي خطوة أخرى، استعمل الشعر الصوفي كوسيلة تعليمية داخل الزوايا والمساجد والكتاتيب، حيث كانت قصائد مدائح الرسول (عليه السلام) تدرس وتحفظ إلى جانب القرآن الكريم والسيرة النبوية والتاريخ، مما ساعد على

نشر الكثير من القيم الصوفية مثل الزهد والالتزام الأخلاقي، ومزج اللغة العربية باللهجات المحلية في التعبير عن المعاني الدينية والثقافية (Willis, 1979, pp.115-116). وارتبط التصوف في غرب إفريقيا ايضاً بالممارسات الثقافية الشفهية مثل الأناشيد والذكر الجماعي، إذ تحولت هذه المجالس إلى فضاءات تعليمية وثقافية مفتوحة تجمع بين التعلم والترفيه الروحي، وتتيح نقل القيم الدينية والاجتماعية بطريقة يسهل تقبلها من الدارسين كما جادل بعض المؤرخين (Levtzion, & Pouwels, 2000, pp.19-20 & Robinson,2006, pp.166-167).

هذه الممارسات الصوفية ساهمت في ترسيخ ثقافة شفوية تقوم على حفظ الأشعار وترديد الأدعية والأذكار والأوراد ونقل المعارف الدينية والمفاهيم الصوفية عبر الأجيال، ضمن إطار تثقيفي وتعليمي اثبت فاعليته في تشكيل الهوية الثقافية والدينية لمجتمعات غرب إفريقيا كما جادل بعض الباحثين (Levtzion, & Pouwels, 2000, pp. 21 & Batran, 2001, pp. 81-82).

وهكذا أخذت الزوايا والخلوات تتحول من أماكن للعبادة، إلى مراكز تعليمية وتثقيفية جمعت بين التعلم الديني ونشر الذكر الجماعي والأوراد، وتدعيم الروابط الروحية، وتعليم مبادي الصوفية، وتعزيز التلاحم الاجتماعي بين مجتمعات غرب إفريقيا. وبرزت مدن تمبكتو وقاو وجني وكوكيا وبير كمراكز رئيسية لهذه الثقافة الدينية والصوفية، حيث نشأت فيها مدارس ومكتبات خدمت المريدين والسكان المحليين على حداً سواء. ولم تقتصر الحركة الثقافية والعلمية في هذه المراكز على العلوم الدينية فقط، بل شملت أيضا الحساب والتاريخ، مما جعلها مراكز إشعاع علمي وثقافي وحضاري دعم نقل المعرفة الدينية والصوفية بين الأجيال (Pouwels, 2000, pp.80-85 & Hunwick, 1999a, pp.103-104).

المبحث الثالث

أثر التصوف على الحياة الاجتماعية

لم يقتصر تأثير التصوف في غرب إفريقيا على الجانب الثقافي والتعليمي والممارسات الروحية والدينية، بل شكّل إطاراً اجتماعيًا فريداً عكس التفاعل بين الإسلام والطقوس المحلية، وساهم في إعادة صياغة الهوية الاجتماعية لمجتمعات البحث. وقد رافق التصوف مسيرة انتشار الإسلام في جهاده للقضاء على الجهل والتخلف في هذه المجتمعات (محمد، 2018، ص. 2). واحتل رجال الصوفية مكانة اجتماعية كبيرة في مجتمعات غرب إفريقيا، بسبب الخدمات التي كانوا يقدمونها للناس، وكانوا يركزون في تعليمهم على تهذيب النفس وتزكيتها، ونشر القيم الأخلاقية النبيلة كالتواضع والزهد والتسامح، والتي انعكست على سلوك الأفراد في المجتمع. هذه التعاليم الصوفية كان لها دور مهم في حل المشاكل الاجتماعية والحد من النزاعات القبلية عبر الدعوة إلى الصلح ونبذ العنف وبناء مجتمع تسوده روح التعاون والاحترام المتبادل (Trimingham, 1962b, p.127 & Seesemann, 2010, 607).

وكان تأثير رجال التصوف بارزاً في تدعيم التكافل والتضامن الاجتماعي داخل مجتمعات غرب إفريقيا، من خلال تشجيع اتباعهم على أعمال البر والإحسان ومساعدة الفقراء المحتاجين، وهو ما ساهم في تقوية العلاقات الاجتماعية بينهم وبين مجتمعات البحث (Levtzion & Hopkins, 2000, p. 210).

ومن أبرز الآثار الاجتماعية للتصوف في غرب إفريقيا أيضاً نشر قيم التسامح والتعايش السلمي بين مختلف العرقية والثقافات، حيث تميز الخطاب الصوفي بالمرونة والانفتاح، الأمر الذي ساعد على تقبل الإسلام داخل مجتمعات البحث دون صدام مع العادات المحلية، وسرع من انتشار الإسلام بطريقة سلمية وتدريجية ودمج التعاليم الإسلامية مع بعض التقاليد الاجتماعية المحلية التي لا تتعارض مع الشريعة. كما ساعد المتصوفة على إرساء قيم النظام الديني والاجتماعي بين مجتمعات غرب إفريقيا، حيث ارتبطت الطرق الصوفية بتربية المريدين على الالتزام بالأخلاق الحسنة واحترام الأعراف الاجتماعية المتوافقة مع التعاليم الإسلامية (Hunwick, 1999a, pp. 87-88).

وكان للزوايا الصوفية اسهاماً كبيراً في تنظيم الحياة الاجتماعية من خلال الوظائف المتعددة التي كانت تؤديها كتشجيع العادات الاجتماعية التي تؤدي لترابط المجتمع، والعمل الجماعي، والتعاون بين الناس، وإيواء طلاب العام (Hunwick, 2003b, Vol. IV. pp.110–112 & Brenner, 1984, 70–71). وفضلاً عن كونها مراكز للعلم كانت الزوايا أماكن يلتقي فيها الناس في المناسبات الاجتماعية والدينية كالاحتفال بالعيدين وبالمولد النبوي وإحياء الذكر الجماعي، وهو ما ساعد على تقوية اللحمة الاجتماعية والهوية الإسلامية داخل مجتمعات غرب إفريقيا (Hunwick, 1999a, p. 95).

ونتيجة لهذا التفاعل الثقافي والاجتماعي بدأت الكثير من الطقوس والعادات الاجتماعية القديمة في الانقراض، فالقرابين للأرواح تم استبدالها بزيارة الولي الصالح، حيث يتم إطعام الغريب كبركة، وصار غسل المولود يتم بتلاوة الأذان والتهنئة بالقرآن، مع ذبح العقيقة وختان الذكور وقراءة المعوذات والدعاء بأن يكون من حفظة القرآن (محمد، 2018، ص21–24، ولهادي، 2014، ص131).

واستبدلت الطقوس الموسمية المرتبطة بالمواسم الزراعية، والتي كانت تتضمن عبادة أرواح الطبيعة والرقصات الشعائرية، بالاحتفالات الدينية التي تبدأ بقراءة القرآن وتوزيع الطعام على الفقراء والتصدق من المحصول، مع الحفاظ على الإيقاعات الموسيقية المحلية ولكن في سياق ديني موجه نحو الله تعالى، وهو ما ساهم في تعزيز الروابط الاجتماعية وتقوية القيم الدينية المشتركة بين أفراد المجتمع (الهادي، 2014، ص 125). وامتد تأثير التصوف إلى الطقوس القبلية التقليدية الخاصة بالزواج، والمتمثلة في اختطاف العروس، والتي حل محلها مناسبات اجتماعية ودينية تشمل الخطبة وعقد القران ومباركة الشيخ والحاضرين للزوجين بقراءة الفاتحة وتوزيع الطعام والشراب على الحضور، مع تلاوة الأوراد والصلاة الجماعية في الزوايا، ما يعكس تحول الممارسة والطقوس والعادات الشعائرية القديمة إلى شعائر اجتماعية متكاملة دعمت الانتماء الاجتماعي والأسري ورفعت من مكانة المرأة الغرب إفريقية (Trimingham, 1962b, pp. 152-155, & Seesemann, 2010, pp. 610-612 & Robinson, 2004,pp. 45-50)

وفي نفس السياق، شهدت طقوس دفن الموتى تحولات هامة، إذ حلت قراءة القرآن والدعاء للميت وتوزيع الصدقات محل التعاويذ والقرابين، كما أصبحت المقابر مواقع للتفكر والتذكير بالأخرة والدعاء والتبرك، بعدما كانت أماكن مخيفة ومعزولة، وهو ما عزز قيم التضامن والاحترام الاجتماعي للموتى (Trimingham, 1962b, pp. 156-160 & Robinson, 2004, pp. 52-55)

وعلى الصعيد الصحي، استبدلت الممارسات الوقائية القديمة مثل التعاويذ السحرية بالأوراد القرآنية والمسبحة في غرب إفريقيا، بينما تبنى الأطباء التقليديون قراءة الرقية الشرعية مع الأعشاب التقليدية، مما أضفى بعداً روحانياً وحماية دينية على العلاج .(Trimingham, 1962b, pp. 162-165) . وفي السياق نفسه، تحول الوشم من رموز غامضة ومخيفة إلى آيات قرآنية، وأصبحت القلائد الحجرية السحرية قلائد خرز ملونة تحمل أسماء الله الحسنى، مع منح كل لون معنى محددًا: الأخضر للبركة، والأحمر للحماية، والأسود ضد الشر، والأبيض للطهارة ونقاء النفس، وهو ما أعطى هذه الرموز وظيفة اجتماعية وروحية متكاملة (Seesemann, 2010, pp. 609-610 & Robinson, 2004, pp. 58-62) .

ومن ناحية أخرى لعب التصوف دوراً هاماً في توسيع الانتماءات الاجتماعية وتجاوز الولاءات القبلية الضيقة، من خلال شبكات الشيوخ متعددة الأعراق، مثل حالة سيدي الحاج سالم بن أحمد الشنقيطي الذي ربط موريتانيا بمالي عبر سلاسل البركة، حيث جمعت هذه الشبكات القبائل المختلفة في إطار روحاني مشترك، محولة الانتماء الاجتماعي من ولاءات قبلية ضيقة إلى ولاءات أوسع تقوم على الطريق الصوفي والشيخ الموحد، ما أسس شبكات ولاء ثقافية ودينية تجاوزت الحدود القبلية والإقليمية (Abun–Nasr, 1965, pp. 67–72).

يتضح مما سبق أن التصوف كان له تأثير عميق في الحياة الاجتماعية في غرب إفريقيا، حيث أسهم في ترسيخ القيم الأخلاقية، وتعزيز التكافل الاجتماعي، والمساهمة في حل النزاعات بين أفراد المجتمع. كما لعبت الزوايا والمتصوفة دوراً

مهماً في تنظيم الحياة الاجتماعية ونشر ثقافة التسامح والتعايش بين مختلف الجماعات. وقد ساعدت هذه الأدوار مجتمعة في بناء مجتمع أكثر استقراراً وتماسكاً، مما يبرز أهمية التصوف كعامل مؤثر في تشكيل البنية الاجتماعية في غرب إفريقيا خلال العصور الإسلامية

المبحث الرابع

أثر التصوف في الحياة السياسية في غرب إفريقيا

يظهر التاريخ السياسي لغرب إفريقيا أن التصوف كان عاملاً رئيسياً في الحياة السياسية، وأن المتصوفة لعبوا دوراً أساسياً في توجيه السياسة، وتعزيز الشرعية الدينية للسلاطين، الأمر الذي مكنهم من حكم مجتمعات متعددة الأعراق والثقافات (Trimingham, 1962b, p. 50). ويمكن إرجاع تأثير التصوف والمتصوفة في الحياة السياسية إلى عهد إمبراطورية غانا الوثنية (300 ق. هج–600هـ/300–1200م)، حيث توضح سجلات البكري (1992، ج2، ص 871–872)، أن ملك غانا تتكامين كان يخص التجار والعلماء وشيوخ الصوفية بمكانة مرموقة في بلاطه، واعتمد عليهم في شغل الوظائف السياسية الهامة. كما منحهم امتيازات اقتصادية مثل الإعفاء من الضرائب على تجارتهم، وحرية التنقل بين المجتمعات التي كانت في نطاق سيطرته، وامتيازات دينية تمثلت في بناء مسجد خاص بهم على مقربة من بلاط الملك الغاني. بالإضافة إلى امتيازات اجتماعية تجلت في إقامة مدينة خاصة بهم تحوي اثني عشر مسجدًا، مما عزز من نفوذهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في غانا (البكري، 1992، ج2، ص 876). وهكذا بدأ التأثير الصوفي في غرب إفريقيا من البلاط الملكي وتوسع اجتماعياً بإقامة مدينة خاصة بالجالية الإسلامية بكامل مرافقها في غانا.

ومع قيام إمبراطورية مالي في القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، ازداد التأثير الصوفي في مجتمعات غرب إفريقيا. فإسلام ملك مالي كان بتأثير تاجر صوفي إباضي من جبل نفوسة في ليبيا، والذي ساهمت كراماته في جلب الأمطار لهذه المملكة بعد جفاف وقحط كاد يهلك السكان، فأمر الملك بطرد الكهنة وتدمير الأصنام وإقامة شعائر الإسلام (البكري، 1992، ج2، ص 875). ولابد من الإشارة هنا إلى أن الإباضية كانت تمتلك شبكة تجارية واسعة تربط المغرب العربي بغرب أفريقيا، مما منحهم تأثيراً دينياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً كبيراً على سلاطين إمبراطورية مالي كما جادل Hrbek (1992, p. 80). وبتأثيرهم أدى منسى موسى ملك مالي فريضة الحج عام 724هـ/1324م، في موكب عظيم تضمن ستين ألف مرافق، وخمسمائة عبداً يحرسونه، وكميات هائلة من الذهب، وكان أول من حج من ملوك غرب إفريقيا (المقريزي، 2000، ص 110؛ والسعدي، 1898م، ص 8). وكان هذا السلطان من أكثر سلاطين مالي في تثبيت حضور العلماء والمتصوفين بالبلاط، حيث أحاط نفسه بالفقهاء والعلماء وشجع بناء المساجد والمدارس في تمبكتو وجاو وجني، واستقدم علماء من المغرب العربي والأندلس لتدريس العلوم الشرعية وبناء المساجد في مملكته (السعدي، 1898م، ص 56–57).

وفي مثال اخر يظهر أهمية رجال الدين في دعم شرعية الملوك، يكفي أن نشير إلى رواية السعدي (1898م، 11–12)، في إسلام ملك جنى، والذي جمع أربعة آلاف ومائتين من العلماء وشيوخ التصوف والتجار المسلمين الذي كانوا يعيشون في مملكته ليشهدوا على إسلامه ويباركوه، وهو ما يوضح أهميتهم في دعم الملك، حيث كان هؤلاء بالإضافة إلى كونهم قوة دينية كبري يمثلون قوة ضغط اقتصادية سياسية هامة في جنى. لذلك سعى الملك لاستقطابهم للحصول على دعمهم لشرعيته كحاكم مسلم.

وبلغ تأثير التصوف في الحياة السياسية ذروته في عصر إمبراطورية الصنغي (800–1000هـ/1400–1591م)، التي وثق سلاطينها علاقاتهم بالعلماء والقضاة ورجال الكرامات واعتمدوا على نصائحهم في تسيير شؤون المملكة. ومن أبرز الشخصيات المؤثرة في مملكة الصنغي، العالم الصوفي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، الذي قدم الصنغي ضيفاً

وخصه السلطان أسكيا الحاج محمد الكبير (898–935 هـ/1493–1528م)، بمكانة كبيرة واتخذه مستشارًا خاصاً (السعدي، 1898م، ص 73).

ويعد مخطوط "أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي"، دليلاً قاطعًا على تأثير هذا الصوفي في توجيه سياسة أسكيا الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية (المغيلي، مخطوط، رقم 1735، ورقات 3–6). وبناء على نصائح المغيلي، فرض أسكيا الحاج المكاييل والموازين الموحدة في الأسواق لمنع الغش تحت إشراف المحتسب (Cissoko, 1996، 136). كما اعتمد المغيلي نظام "الحسبة" الذي طوره علماء المغرب والأندلس، وطبقه في مملكة الصنغي لتنظيم المعاملات التجارية في جميع أسواق المملكة (Hunwick, 2003, p.78).

وللتدليل على مكانة المغيلي عند السلطان أسكيا، يكفي أن نشير إلى رفض الأخير استضافة اليهود المطرودين من واحة توات بفتواه (السعدي، 1898م، ص 180). وسار خلفاء هذا السلطان على نهجه في إحاطة أنفسهم بالعلماء ورجال الصوفية الذين وجهوهم في الإدارة الدينية والسياسية كما توضح سجلات السعدي (1898، ص 112)، مما ساهم في استقرار إمبراطورية الصنغي وازدهارها لقرن كامل من الزمان. وقد لعبت الطرق الصوفية دورًا حاسماً في ربط المراكز السياسية بالمناطق الريفية من خلال شبكات الزوايا (Willis, 1979, p. 146–160)، حيث كان رجال الصوفية يتولون فض النزاعات القبلية، وينظمون الضرائب، يوجهون القرارات الكبرى، ويبنون شبكات اجتماعية واسعة منتهم من تشكيل ولاءات سياسية عززت قدرة السلاطين على الاستمرار في الحكم لمدة طويلة من الزمن (Robinson, 2004, p.56 ,Hiskett, 1984, p. 120)

الخاتمة

من خلال دراسة تأثير التصوف على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في غرب إفريقيا يتضح ما يلي: –

- ✓ دخل التصوف غرب إفريقيا عبر مسارات متعددة، أبرزها حركة التجار والعلماء، والرحلات العلمية، ومواسم الحج، وتوافد المخطوطات، فاستقر في البيئة المحلية وارتبط بحياة الناس اليومية.
- ✓ أن التصوف في غرب إفريقيا لم يكن مجرد ممارسة روحانية فردية، بل تحول إلى مشروع ثقافي واجتماعي وسياسي متكامل، أسهم في إعادة رسم بنية المجتمعات المحلية وربطها بالإسلام عبر قنوات ثقافية وتعليمية وسياسية.
- ✓ أن الزوايا والكتاتيب والخلوات لم تكن مراكز تعليم مجردة، بل فضاءات ثقافية واجتماعية تجمع بين القراءة والكتابة والقرآن، وبين التربية الأخلاقية والروحية، فساهمت في تكوين هوية ثقافية تقوم على الجمع بين العلم والعمل والسلوك.
- ✓ التصوف ساهم في ترسيخ ثقافة أدبية وشعرية، من خلال الشعر الصوفي والمدائح النبوية، والأوراد، والنصوص الصوفية المكتوبة، التي أصبحت وسائل تعليمية ووسائل تأصيل معرفي وصوفي في آن وأحد.
- ✓ بين البحث التحول الجذري الذ طراء على طقوس الحياة الاجتماعية والدينية، بفعل تأثير التصوف، حيث استبدلت العادات الوثنية أو المحلية بطقوس إسلامية تحمل نفس الوظائف الاجتماعية، وتعزيز الروابط الأسرية والقبلية، مع الحفاظ على بعض الإيقاعات والرموز المحلية في إطار ديني، مما يدل على مرونة التصوف وانفتاحه على الثقافة المحلية، ونجاحه في ترسيخ الإسلام دون صدام معلن مع التقاليد المحلية.
- ✓ خلص البحث إلى أن التصوف لم يقتصر على الجانب العقائدي، بل تجاوزه ليشكل إطاراً اجتماعياً متكاملاً، جمع بين التهذيب الأخلاقي، وحل النزعات القبلية، ونشر مفاهيم التكافل والتضامن واحترام، وتوسيع دائرة الانتماء من القبيلة إلى الجماعة الدينية المشتركة.

- ✓ كشف البحث عن أن رجال الصوفية الذين ارتبط بهم سلاطين مالي والصنغي، لم يكونوا مجرد معلمين روحيين، بل كانوا مستشارين سياسيين واقتصاديين، ورجال سلطة روحية وفكرية في نفس الوقت، استفادت منهم هذه الإمبراطوريات في إرساء قوانين وقواعد تنظم الحياة العامة وتقوي الالتزام بالقيم الإسلامية.
- ✓ خلص البحث إلى أن الطرق الصوفية ساهمت في تقوية الاتصال بين المراكز السياسية والريفية، من خلال شبكات الزوايا المنتشرة في القرى، وجعلت الشيوخ وسطاء بين السلاطين والرعايا، فعززت استقرار الأنظمة، ودعمت مفهوم الحكم بوصفه مسؤولية دينية قبل أن يكون سلطة مادية.
- ✓ بين البحث أن التصوف لم يخفف فقط من الجهل والانقسامات القبلية، بل حول مراكز محدودة من المعرفة إلى مدن متكاملة للعلم والثقافة والسياسة، فأصبحت الزاوية في غرب إفريقيا مثل المدينة داخل المدينة، حيث التقى الدين بالعلم، والروح بالمادة، والحاجة الروحية بالحاجة السياسة والاجتماعية.
- ✓ أكد البحث عن أن التصوف في غرب إفريقيا حقق أهدافه في الربط بين العلم والدين، وربط التعليم بالأخلاق، وربط السلطة بالشرعية، ووصل إلى أن التصوف كان حجر الزاوية في بناء مجتمعات مستقرة، وترك تراثاً ثقافيًا ومؤسسياً ما زال يشكل مرجعية للإجابة عن إشكالية البحث: كيف أثر التصوف في التغيير الثقافي والاجتماعي ودعم الاستقرار السياسي في غرب إفريقيا؟

قائمة المصادر والمراجع

1-نصر، سيد حسين، *التصوف الإسلامي*، بيروت: دار الفكر، 1998م.

2-أبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، *المقدمة*. تحقيق علي عبد الواحد وافي. الطبعة الثانية. بيروت: دار القلم، 1961.

3-أبيكن، د. موسى عبد السلام، *التصوف في غرب إفريقيا*، مجلة حوليات التراث، العدد 13، 2013م، ص 21-27، والألوري، أدم عبد الله. 1345هج/2014م. *الإسلام في نيجيريا*، الطبعة الثانية، نشر دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني.

4-Trimingham ,1968a. *The Influence of Islam upon Africa*. New York: Praeger.

5-Vikør, K.S. 2000. *Sufi Brotherhoods in Africa*. In: Levtzion N. & Pouwels R. (eds.), The History of Islam in Africa, pp. 441–476. Athens: Ohio University Press.

6-Levtzion, N. & Hopkins, J. F. P. (Eds.). 2000. *Corpus of early Arabic sources for West African history (*J. F. P. Hopkins, Trans.). Markus Wiener Publishers.

7-Hunwick, J. O. 1999. *Timbuktu and the Songhay Empire: Al-Sadis Tarīkh al-Sūdān and other contemporary documents*. Brill and Norris, H.T.

8-Levtzion, Nehemia. 1973. *Ancient Ghana and Mali*. published by Methuen & Co Ltd.

9-Trimingham, Spencer J. 1962b. *A History of Islam in West Africa,* Oxford University, Press, Oxford.

10-الهادي، عبد العزيز. 2014م. *الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام بإفريقيا جنوب الصحراء*، مجلة افاق فكرية، العدد 1، ديسمبر-جانفي، 2014، ص 123-131، ومحمد، سالم محمد. 2018. *"أبعاد الاجتماعية للتصوف في غرب إفريقيا: البنى والوظائف الاجتماعية"*، نشر، مركز الجزيرة للدراسات.

11-كعت، محمد بن الحاج المتوكل الكرمني.2014م. *تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس*، ط1، مؤسسة الرسالة اشرون، دراسة وتعليق، أدم بومبا.

12-صحراوي، عبد القادر. مارس 2019. *الكتاتيب القرآنية والثقافة الإسلامية في إفريقيا الغربية*، مجلة الحوار المتوسط، المجلد العاشر، العدد 1، ص 123-129.

13-Kane, Ousmane Oumar. 2015. *Beyond Timbuktu: An Intellectual History of Muslim West Africa*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
14-Robinson, David. 2004. *Muslim Societies in Africa History*. Cambridge University Press.
15- Levtzion, Nehemia, & Pouwels, Randall L. (Eds.). 2000. *The History of Islam in Africa.* Athens, OH: Ohio University Press.
16-Willis, J. R. 1979. *The adab tradition in western Africa: Studies in the transmission of religious learning*. In J. R. Willis (Ed.), Studies in West African Islamic history: Vol. 1. The cult of saints and the diffusion of Islam (pp. 115-160). Frank Cass.
17-Batran, A.A. 2001. *The Qadiriyya Brotherhood in West Africa and the Western Sahara*. Rabat: Publications de l'Institut des E ´tudes Africaines.
18-Pouwels, R. L. 2000. *Horn and Crescent: Cultural change and traditional Islam on the East African coast, 800-1900.* Cambridge University Press.
19-Hunwick, J.O. (ed.) 2003. *Arabic Literature of Africa*, Vol. IV: The Writings of Western Sudanic Africa. Leiden: Brill.
20-Brenner, Louis. 1984. *West African Sufi*. The Religious Heritage and Spiritual Search of Cerno Bokar Saalif Taal. Berkeley, University of California Press.
21-Seesemann, R.2010. *Sufism in West Africa*, Religion Compass, Blackwell Publishing: pp. 606–614.
22-Abun-Nasr, J. M. 1965. *The Tijaniyya: A Sufi Order in the Modern World*. Oxford University Press.
23–أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت.487هج)، *المسالك والممالك*، حققه وقدم له، ادريان فان ليوفن واندري فيري، نشر، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، جزان، 1992م.
24-Hrbek, I. (Ed.). 1992. *Africa from the Seventh to the Eleventh Centur*y (General History of Africa, Vol. 3). London: James Currey; Paris: UNESCO; Berkeley: University of California Press.
25–المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر محمد بن إبراهيم، *الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك*، تحقيق جمال الدين الشيال، نشر مكتبة الثقافة، القاهرة، 2000، والسعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر، *تاريخ السودان*، نشر، أوكتاف هاودس، باريس، 1898م.
26–المغيلي، محي الدين ابي عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني، *أجوبة المغيلي على أسئلة أسكيا محمد*، مخطوط رقم 1735، مركز المخطوطات العربية نيامي، النيجر.
27-Cissoko, Sékéné Mody, 1964. *"Humanism on the banks of the Niger in the sixteenth century"*, Présence Africaine, Vol. 21.
28-Hiskett, M. 1984. *The Development of Islam in West Africa*. London: Longman Group Limited.